دور الأعيان و الوجهاء في ليبيا
"المرحلة الانتقالية نموذجاً"

د. المختار خليفة قشوط*

مقدمة:

– ما الذي يجعل الأعيان و الوجهاء فاعلين و مؤثرين داخل مجالات نفوذهم القبلية ؟

– ما الأدوار التي يضطلع بها الأعيان؟

– ما مصادر وجهاتهم الاجتماعية؟

– كيف يشتغلون؟

– كيف يعملون علي بناء و تجذير وجهاتهم الاجتماعية؟

– كيف يمكن الاستفادة منهم خلال المرحلة الانتقالية الراهنة؟

تبرز هذه الأسئلة بمقدار الحاجة للأعيان والوجهاء خلال المرحلة الانتقالية التي تمر بها ليبيا الآن، فعجز الحكومة الانتقالية والمؤتمر الوطني عن إدارة المشهد السياسي الحالي يتطلب البحث في تراكم تاريخ من الأفعال وردود الأفعال لا يعود حصرياً إلى المجتمع الحالي، وإنما يمتد إلى الفترة الاستعمارية التي عرف فيها الأعيان والوجهاء نوعاً من الاعتراف، كما يعود أيضا إلى السلطات المحلية التي اعترفت بقدرة الأعيان والوجهاء كعناصر فاعلة في ترتيب وتدبير الحياة المجتمعية، فمن خلال هذا الإرث التاريخي يسجل الأعيان امتداد الماضي في الحاضر، بل إنه في ظل ليبيا اليوم، مازالت الحاجة إلى الأعيان والوجهاء ضرورية، ومازال الطلب يرتفع عليهم كلما حدث انشقاق، ما يؤكد أن الحاجة إلي الأعيان و الوجهاء مازالت ماسة و ضرورية للاستعانة بهم في المرحلة الانتقالية. وفي محاولتنا معالجة هذا الموضوع، وتحقيق الهدف الأساسي من وراء هذا البحث تناولنا سوسيولوجيا الأعيان والوجهاء في المجتمع الليبي، والمراحل التاريخية التي مرت بها وكذلك عرضنا العوامل التي تساعد على الاعتراف بالأعيان والوجهاء إضافة لعرض آليات الهيمنة والخضوع التي يتمتع بها الأعيان لفرض وجاهتهم، وصولاً إلى كيفية الاستفادة منهم خلال المرحلة الانتقالية.

إنني لا أدّعي مطلقاً التمكن الشمولي من دراسة نظام الأعيان والوجهاء، بل اعترف منذ البداية بصعوبة وجود مصادر حول هذا الموضوع فالأمر يتعلق من البدء والختام بمحاولة لها ما لها، وعليها ما عليها دونما ادعاء للكمال والاكتمال.

---

* كلية الآداب غريان قسم الاجتماع، جامعة الجبل الغربي.

سوسيولوجيا الأعيان:

كيف يشتغلون وجهاء القبائل؟ كيف يعملون علي بناء الوجاهة الاجتماعية؟ ما العوامل التي تحدد شروط استمرارهم في المشهد السياسي في ليبيا؟

للإجابة عن هذه الأسئلة يمكن القول أن سلوك الأعيان هو حصيلة تفاعل بين مجموعة من العوامل المساهمة في استمرارها، إنه نتاج تراكمي لتاريخ من الأفعال وردود الأفعال لا يعود حصرياً إلي الوضع الحالي، وإنما يمتد إلى الفترة الاستعمارية التي عرف فيها الأعيان والوجهاء في ذلك الوقت نوعا من الاعتراف ويعود أيضا إلى اعتراف الحكومات الليبية المتتالية حيث يظهر الأعيان كعناصر فاعلة في ترتيب الحياة المجتمعية، فمن خلال هذا الإرث التاريخي تسجل الأعيان والوجهاء امتداد الماضي في الحاضر. لقد أدرك النظام الملكي ونظام القذافي أهمية الأعيان والوجهاء في المجتمع واستوعب كيف يجب أن يحكم معهم لاضدهم، هذا الاعتراف بالأعيان من قبل الدولة وأهمية أدوارها المركزية سنكتشفه مرة أخري مع المستعمر الإيطالي الذي لم يكن لينجح في مخطط التهدئة بدون سياسة الأعيان و الوجهاء.

فعندما ننتقل إلي فترة استقلال ليبيا وفي سياق محاولة الانتقال من القبيلة إلي الدولة كان لشيوخ القبائل و الوجهاء دور بارز في بناء الوجاهة السياسية، وتدعيم حضور الدولة بصيغ شتى، بل إنه في ظل ليبيا اليوم ، مازالت الحاجة إلى الأعيان ضرورية، ومازال الطلب السياسي يرتفع عليهم حتى من قبل أكثر الأحزاب ريديكالية، ما يؤكد أن الحاجة إلى الأعيان مازالت ماسة.

إن الصراع الدائر في كثير من الحقول المجتمعية في ليبيا اليوم، هو صراع و تدافع حول السلطة والمال فهناك صراع مستمر حول هذه المكانات، و من الطبيعي أن يكونوا الأعيان وقبائلهم والوجهاء منخرطين في هذا النوع من الصراع لتأمين حظوظهم في التنافس الاجتماعي.

هذا الأمر فرض علينا البحث في سوسيولوجيا الأعيان.

والسؤال الذي يطرح نفسه الآن: ما العناصر التاريخية التي أسهمت في تكرس هذا النوع من السلطة؟ لهذا كان علينا أن نحدد مفهوم الأعيان أو الوجهاء حيث يشير ابن منظور(ابن منظور،481,1997) إلى أن الأعيان أو الوجهاء هم النخبة "وأن نخبة القوم خيارهم" .

فالنخبة و جمعها نخب تدل على المختار والمتفرد والمتميز بالتفصيل أو التحسن أو الاختيار. غير أن العرب يستعملون مصطلحات أخرى تحيل علي نفس المعني كالصفوة والأعيان والوجهاء فكلها مسميات لمعني واحد يفيد التميز والاختلاف.

ما يهمنا في هذا الصدد هو نفوذ الأعيان و الوجهاء في المجتمعات القبلية , الذي يقتضي فيه دخول الأعيان في إشهارات رمزية لتأسيس العلاقات مع مختلف تشكيلات المجتمع داخليا وخارجياً، وبذلك فالنظر إلي المجتمع الليبي ينبغي إن يأخذ بعين الاعتبار العلاقات القائمة في هذا المجتمع والفاعلة فيه والتي تتخطى حدود المناطق وتكمن في قدرة الأعيان في النفوذ خارج حدود مجال القبائل.

إن مسألة الزعامات التقليدية أو الأعيان المحلية لم تستأثر باهتمام الباحثين في مجتمعنا، ولعل السبب كان وراء هذا الغياب هو هيمنته النظام السابق على هذا الحقل وحدد شروط إنتاجها وعلاقة هذه الزعامات مع المجتمع المحلي والسلطة المركزية.

فالزعامات المحلية ليست نتاجا داخليا أملته الشروط القبيلة فحسب ولكنه نتاج تفاعل جملة من العناصر يأتي في مقدمتها السلطة الحاكمة التي تجدر الزعامات وتعترف بها، فضلاً عن الاستعمار الايطالي الذي لم يعمل على التخلص من هذه الزعامات بل عمل على إعادة إدماجها،
بعدما تعرف المُستعمر إن شيوخ القبائل لهم مقومات معينة: "منها كونها مستقطبة لعدد مهم من السكان، ومسيطرة على مجال معين، ولها قدرة على تحدي السلطة المركزية، إلى جانب القدرة على المنافسة والإقناع، ولهذا عمل الاستعمار على تدعيم هذه الزعامات والمراهنة عليها في سبيل إحكام سيطرته على التراب الليبي.

فمن الممكن القول سلطة الأعيان وشيوخ القبائل تتأسس على بعدين:

الأول: قبلي وهو التجدر الاجتماعي والانتماء القبلي، **والثاني:** العلاقة بالسلطة المركزية الذي يمنح الاعتراف الخارجي، وتأكيد القدرة على ممارسة السلطة، وهو ما يمنح الزعيم المحلي قدرات تفاوضية في اتجاه الداخل والخارج ويقوي حظوظه محلياً ومركزياً، فالوجاهة وفقاً لهذا الفهم لا تكون نتاجاً خالصاً لبعد واحد، وإنما هي ثمرة تفاعلات مستمرة بين اعترافات أجهزة وبنيات متعددة. حيث طبيعة النظام السياسي القائم في ليبيا منذ العهد الملكي مروراً بزمن القذافي تؤسس لبروز الزعامات المحلية لقدرتهم على التأثير على المجالات التي كانوا يمارسون فيها نفوذهم السياسي، وتأسيسا على ما سبق يمكن القول بأن الأعيان نموذج ليبي الصنع ويضل خصوصية ليبية أنتجتها تحولات المجتمع وعلاقاته وصراعاته بين القبيلة والدولة.

فعلى سبيل المثال "المرابط"* في عهد الدولة العثمانية الذي استعانت به لحل النزاعات باعتباره شخص مهاب ينتدب للتحكيم في النزاعات ويختص بالوساطة بين القبيلة والسلطة المركزية وذلك بسبب

* هو شيخ زاوية مهاب ينتدب للتحكيم في النزاعات وله وظائف متعددة مثل الوساطة والتحكيم بين القبائل معتمدا في ذلك على الدين.

توفره على شرط "الهيبة" الذي يعد نتاجا لما يتوفر عليه من "البركة " فكل هذه الأساسيات تجعله ضمن الأعيان، وبالتالي يعتبر المرابط من ضمن الأعيان في المجتمع القروي الليبي في فترات سابقة من تاريخ مجتمعنا ، وهذا يعني أن التنظيم الاجتماعي القبلي الليبي يستوجب وجود وسطاء للحفاظ على فعاليته (إرنست،1981،50) حيث يتكفل "المرابط" بضمان أمن الحدود للقبيلة، كما يساعد على تيسير المبادلات داخل القبيلة الواحدة وبين القبائل، وباحتضان الأسواق والمواسم على أراضيهم ، فمهامهم متعددة منها الوساطة والتحكيم وأمن الطرق وتدبير المقدس حيث النزاعات التي تنشأ في المجال العام "الأرض السايبة" تجد حلاً لها في المجال الديني، وكل ذلك اعتماداً على مفهومي "البركة"، فالبركة التي يحوزها المرابط تساعده في تجذير وجاهته الاجتماعية، وتقوية نفوذه بين القبائل، خصوصاً وإن البركة تدل على قوة جذب خارقة تأتي من مصدر إلهي "وفقاً للعرف السائد آنذاك"، فالبركة تحظي بقيمة رمزية وبفاعلية على مستوي الممارسات الاجتماعية (بنسالم، 1998،12) ويزداد نفوذ " المرابط" أكثر عندما يتصل بالنسب والشرف كالانتماء إلى أهل البيت أو يتوطد بالانحدار من ولي صالح أو زاوية ذات نفوذ يتجاوز حدود القبيلة إلى قبائل أخري.

يمكن القول إن مفهوم المرابط مفهوم لصيق بتحولات المجتمع الليبي فما كان بالأمس يستحق توصيفه بالأعيان قد لا يكون كذلك في الحاضر فالتحولات الاجتماعية هي التي تصنع المفهوم و تبلوره واقعياً.

أهل الحل و العقد:

يمكن القول إن الأعيان والوجهاء كفاعلين في القبيلة وفاعلين في السلطة العليا للدولة، لا تستقيم الدولة إلا بإشهادهم، ولا تحل أو تندلع الأزمات إلا بإسهامهم، و يتكرر ظهورهم كلما حدث شأن مهم من شئون الدولة، لقد تبلور ظهور مفهوم أهل الحل والعقد في صدر الإسلام (صفي الدين،2008،67) ارتباطا بالتحولات التي عرفت انتقال الخلافة الإسلامية بين الخلفاء الراشدين، ومواقع بعدهم من الفتن و الصراعات حول شرعية الحكم، و هناك صار لأهل الحل والعقد حضور بارز في كل انتقال للسلطة حيث يحضرون بصفة الإشهاد علي البيعة، وبسبب هذا الارتباط التاريخي وانتقال الحكم، فإننا نجد داخل التراث الإسلامي مصطلحات أخرى موازية لأهل الحل والعقد، كأهل الشورى وأولى الأمر وأهل الرأي وأهل الإمامة وكلهم لهم حضور في حقل السياسة وخاصة في إنتاج الدولة وتبريرها اجتماعياً.

كما يشير مفهوم أهل "الحل و العقد" إلى زعماء القبائل ورؤساء العشائر والأعيان، وكذلك أهل العلم من حملة الشريعة الإسلامية (علي، 2006 ،112) فأهل "الحل و العقد" هم "أولو الأمر من الأمراء والعلماء و رؤساء الجيش والأعيان والزعماء والوجهاء الذين يرجع إليهم الناس في قضاء الحاجات والمصالح العامة".

فأهل الحل والعقد ليس جماعة ثابتة الانتماءات و الانحدارات، فحيناً يكون العلماء هم الأكثر حضوراً وتأثيراً، و حين أخر يكون الوجهاء والأعيان هم أصحاب النفوذ، وأحياناً أصحاب القوة رؤساء الجيش، وهو ما يبرز بذلك الصراع التاريخي بين السيف والقلم والذي تحسم نتائجه بحاجة السلطان*

هذا يعني أن السلطة المركزية بحاجة دوماً إلى الأعيان والاعتماد عليهم في الشدائد كما في أوقات الرخاء وذلك لقدرتهم التفاوضية ونفس الأمر استعان الطليان بالأعيان حيث أن سياسة التهدئة لن تكون ممكنة إلا بطلب خدمات هؤلاء الأعيان.

العوامل التي تساعد علي الاعتراف بالأعيان والوجهاء:

عادةً ما تلجأ السلطات في البلاد العربية باعتبارها مجتمعات قبلية إلي تكوين مجالس للأعيان، بسبب خطر التدخل الأجنبي وفي حالات تدهور الأحوال الاجتماعية والسياسية.

هذه الخطوة تحمل بُعد الاعتراف بقوة الأعيان والوجهاء، فخلال حكم النظام السابق "مرحلة القذافي" كان يدعو لاجتماعات القيادات الشعبية كلما شعر بتهديد من طرفاً ما، وهذا يشير إلى واقعة الاعتراف بالأعيان كنخبة قادرة على الإسهام في حل الأزمة وتبريرها أيضاً، وحدث هذا مع الإدارة الايطالية حيث لم تأت للقضاء على هذه الزعامات، بل عملت على إدماجها وتطبيع العلاقات معها، في سياق هذا الإدماج تعاملت الإدارة الايطالية على تمكين أبناء الأعيان والوجهاء من الدراسة بمدارس خاصة، وبالطبع فهذا الاهتمام بالأعيان والوجهاء وأبنائهم لن يكون بدون مقابل، فإن المصلحة تقتضي أن تحكم ايطاليا "معهم لا ضدهم" المعنى أن الأعيان أداة يمكن أن تخفف من مفعول الصدمة، وتقوم بدور الحوار نيابة عن القبائل فكثيرة هي الوقائع التي تشير إلى أن الإدارة الايطالية ما كان لها أن تبسط نفوذها على الأراضي الليبية لولا تعاون الأعيان والوجهاء فهؤلاء هم الذين ساعدوا الطليان وهم الذين طالبوا بالحماية ،أمام الفوضى الاجتماعية التي عرفتها ليبيا منذ1911 من القرن الماضي وهؤلاء هم من ستعتمد عليهم ليبيا اليوم في بناء الدولة الوطنية، وهم الذين يستنجد بهم "السياسي" اليوم خلال المصالحة الوطنية وخلال الحملات الانتخابية – لكن السؤال المطروح الآن هو كيف تمكّن الأعيان والوجهاء من حيازة هذه المكانة؟ و كيف يتأتي لهم لعب كل هذه الأدوار في أزمنة مختلفة؟

للإجابة عن هذه الأسئلة لابد من الرجوع إلى كيفية بناء الأعيان والوجهاء، والتي في الغالب تتحدد في امتلاك الأرض والمال و العلاقات الاجتماعية مع القبائل المجاورة، والتي تفضي بدورها إلى تأمين النفوذ والسلطة، فامتلاك الأرض من قبل الأعيان والوجهاء لم يأت من فراغ، ولم يكن بمعزل عن تحولات

* يعبر عنه ابن خلدون بالقول – اعلم أن السيف و القلم كلاهما آلة لصاحب الدولة يستعين بها على أمر إلا أن الحاجة في أول الدولة إلي السيف .

المجتمع الليبي وأزماته ،فتراكم الأراضي عند فئة معينة من الناس خلال فترات انتشار الأوبئة وظهور المجاعات والأزمات السياسية التي عرفتها ليبيا خلال القرن التاسع عشر(باسكون،1978،58) ففي ذلك الوقت اضطر صغار الفلاحين إلى بيع أو رهن ممتلكاتهم خلال السنوات الجفاف والمجاعات، في ذلك الوقت كان هناك من هو مستعد دائماً "لاستغلال الفرصة" من الأعيان ورؤساء الزوايا، لقد تم تشجيع الأعيان على توسيع ملكياتهم العقارية تشجيعاً لهم على حسن تعاونهم مع الإدارة الاستعمارية وبالتالي تتمتع هذه الفئات المحظوظة المهيمنة على الأرض برأسمال رمزي تستثمره للبقاء في موقعها الاجتماعي وهو ما يمكنها من تحقيق التفوق الرمزي والسلطوي على بعض الفئات غير المحفوظة (بورديو،1994،57).

وبذلك أصبحت الأرض وملكيتها تضمن السلطة والنفوذ و الثراء، بل إنها المدخل الرئيسي لبناء الوجاهة الاجتماعية والتجذر الاجتماعي للأعيان والوجهاء، وبالإضافة إلى الأرض غالباً ما ينحدر الأعيان من نخبة اجتماعية واسعة ترتكز وضيعتها على النفوذ الديني والثقافي، أو على دورهم السياسي على مستوي الدولة أو المستوي المحلي.

فالحضور القوي للأعيان و الوجهاء، لايمكن أن يفهم في إطار نموذج طبقي، ولكنه يفهم في سياق مجتمع قبلي تحركه سلطة مركزية، فالأعيان ساعدوا النظام السياسي على ترسيخ هيمنته وتقوية حضوره والحفاظ على استقراره واستدامته، ولم يحدث هذا مع النظام القذافي فحسب بل حتى في المرحلة الملكية وما قبلها، والمهم الآن إلى أي حد ما زالت هذه الأطروحة تمتلك نفوذها اليوم؟ في ظل تنامي صراعات بين الأحزاب والقبائل والثوار والمؤتمر الوطني والحكومة والشعب! والحقيقة للإجابة عن هذا السؤال لا بد من الاعتراف أن المجتمع الليبي في العقود الماضية لم يشهد أي تحولات وخاصة في المجتمع القروي، بل حتى في المدن ظلت الثقافة التقليدية والقبلية هي السائدة، فلم يحدث أي تغيير على مستوي القيم مما زاد في تزايد نفوذ القبيلة بشكل لم يكن معهود في السابق وأصبح الحراك المهني يتم من خلال نفوذ القبيلة وأصبح الأعيان خير مدعم للنظام السياسي، وإذا كان العديد من علماء الانثربولوجيا يرو في الدولة هي التي عملت على إنتاج الأعيان والوجهاء عن طريق إدماجهم في الفعل السياسي، فإنه من الممكن القول اليوم بأن الأعيان باتوا مسئولين عن إنتاج الدولة .

إن المجتمع الليبي مجتمع متباين حيث أنماط العيش والسلوك والثقافات متداخلة فيما بينها، التقليدية والحديثة (مؤسسات عصرية وعلاقات قبلية) وعليه يمكن اعتبار تاريخ ليبيا تاريخ التنافس والصراع بين عدة قيادات وتكتلات وزعامات جهوية ومحلية سواء من أجل التحالف مع الدولة أو التمرد عليها، وهي حالة ليبية صرفة، أنتجتها ظروف تاريخية لا تقف عند حدود القرن التاسع عشر، بل تمتد بعيدا في شكل

نشوء وتطور الدولة الليبية. ودونما تناسٍ لأدوار الاستعمار في تجدير هذه التراتبات، لذا يمكن القول إن فعالية الأعيان والنخب المحلية هي التي جعلت الدولة منذ زمن بعيد تعتمد عليهم في بسط سيطرتها ونفوذها، فلقد كانت الحكومات الليبية المتتالية، تعتمد على رؤساء القبائل والوجهاء و الشيوخ والزعامات الدينية بشكل عام لضبط السكان المحليين ومراقبتهم وبسط سلطتها.

فحاجة الدولة للأعيان يبررها ما يحققونه الأعيان من ولاءات باعتبارهم المدخل الوحيد لمراقبة القبائل، وباعتبارهم القوة الفاعلة للاستفراد بالوجاهة والقادرة على إنتاج الولاء و النفوذ، ولذا يمكن للحكومة الليبية في المرحلة الانتقالية الاعتماد على الأعيان وكذلك تنشيط نخب متعددة الحقول سياسية وثقافية واجتماعية و دينية واقتصادية متعددة لإنتاج الهيمنة وهي بهذه الآليات متعددة الانتماءات يمكن إنتاج نخبة التي تساعد الحكومة على تدبير الهوامش "المناطق النائية" وبالتالي تتمكن الحكومة من تدعيم مركزيتها على ما يطرأ من ضعف في الأطراف، إن الانتقال من وضع القبيلة إلى وضع الدولة سيضع ليبيا أمام اختبار صعب فالانتخابات التي أُجريت في سنة 2012 لم تفلح في تكسير الطابع القبلي، كما أن الحكومة لم تنجح في تطبيق النظام الإداري الجديد الذي بدوره يؤدي إلى الانتقال من العشائر إلى الجماعة الإدارية و لكن الذي حدث ومازال يحدث إلى الآن هو "مؤسسات عصرية بممارسات قبلية" ما يدل على عسر القطيعة واستمرارية القبيلة، فالدولة لم تستطع تكسير البنيات التقليدية القبلية ولم تستطع حتى التخلي عن تسمية الأعيان والوجهاء وشيوخ القبائل، فقد تم الاحتفاظ بنفس الاسم بكل ما يختزله من تاريخ رمزي و فعل مادي.

آليات الهيمنة والخضوع:

من الممكن القول إن قوة الأعيان والوجهاء وفاعليتهم المحلية لا يحددها التسويق الرمزي للثروة بل يحددها الرصيد العلائقي، الذي يحوزونه، في اتجاهين:

الاتجاه الأول: يهم مختلف مكونات المجتمع المحلي الذي يرتبطون به عضويا ومصالحيا- أما **الاتجاه الثاني:** يكون في الغالب خارجيا حيث يتعلق بما يؤسسه الأعيان من علاقات مع نخب و فعاليات أخرى على مستوي الدولة، وهذا يعني بناء و تجدير الاعتراف بالأخر، و تأسيس علاقات اجتماعية بمضامين ثقافية وسياسية، فقوة الأعيان تقاس بمدي فعاليتهم الاجتماعية، فلا قيمة للأعيان والوجهاء بدون وساطات ممتدة نحو سلطة اتخاذ القرار في العاصمة "طرابلس" فالأعيان يسوقون زبائنهم من خلال تقديم الخدمات بدئا بالقدرة على الإيفاد للعلاج بالخارج إلى القدرة على توفير وظائف للعاطلين عن العمل، مرورا بالتوسط لدى القضاء، فمتى كان للأعيان الكلمة مع رجال الدولة اعترف له بالوجاهة من قبل أفراد القبيلة، وصار "كبيرهم" الذي تحق عليهم طاعته، فالأعيان ينبغي أن يكونوا قادرين على

التدخل لدى جميع السلطات وإلا لما استحقوا صفة الوجاهة، هناك تنافساً خفياً ينشأ باستمرار بين طالبي خدمات الأعيان من أفراد القبيلة من أجل الظفر بطلب خبرته و"فك الوحل" وتقديم الاستشارة لهم.

فمن المفروض في الأعيان ألا يجيبوا بالسلب مهما كان الطلب مستحيلا فعبارات "كون هاني ما يكون إلا الخير" تكون الأكثر استعمالاً في الرد علي القضايا المعروضة عليهم. و هذا يعني أن الأرض و المال لا تصنع لوحدها الوجاهة الاجتماعية بل لابد من إثراء العلاقات "اللي تقضي للناس أغراضهم" حتى تتمكن من ترسيخ مكانة اجتماعية للعين .

فالعين ينبغي أن يوفر لزبائنه وأتباعه "من أفراد القبيلة" الحماية مقابل الولاء والحماية تعني الوقوف إلى جانب الزبائن في الأفراح و المناسبات فكبير القبيلة هو من يقف إلى جانبهم في كل المناسبات. والذي يستطع إحراز التفوق في الاستجابة لمطالب أفراد القبيلة، هو الأجدر بالولاء وهو الذي له "الكلمة" في مجتمعه المحلي، ولهذا نجده، يعمل على إشهار تدخلاته الناجحة، ويوصف محليا بأنه "صاحب كلمة" والعين الأكثر إيجابية هو من يستطيع "لم شتات" بتعبير أدق هو الذي "يطفي الفتنة" وله القدرة على إصلاح ذات البين بين المتنازعين وهو ما دفع بالعديد من الحكومات للاستعانة بهم لتقوية القاعدة الاجتماعية لسلطتها.

إن احترام الأعيان والوجهاء من قبل أفراد القبيلة يتم بناءا على مدى احترام الأعيان للتقاليد والقيم الاجتماعية، فالمطلوب من الوجهاء تبعا لتمثلات وانتظارات أفراد القبيلة، هو أن يكونوا الأعيان أول المعزومين، وأول المباركين، والأكثر قربا إليهم والإنتصاراً إلى قضاياهم، حتى يمنحونه الولاء والتبعية، وبعد حصول الأعيان على أتباع وزبائن من خلال تقديم هذه الخدمات، يشرع الأعيان والوجهاء في استغلال هذه التبعية في الميدان السياسي. إن دخول الأعيان إلى حقل السياسة مشاركا ومنافسا أو مدعما لجهة ما، ما هو إلا اختبار حقيقي لقدراته وعلاقاته الاخضاعية، إن علاقة الأعيان والوجهاء بالسياسة هي نقطة الالتقاء الأساسية بين نسقين من السياسة أولهما "تقليدي يدور حول الفعل السياسي "الأعيان" كنتاج لمجمل العلاقات الاجتماعية التي بنيت على أساس النسب والجاه والثروة، ونسق عصري تمثله الدولة من خلال المؤسسات، لكن النظام السياسي الليبي يحاول تعزيز سلطة الأعيان والقبيلة داخل مؤسسات عصرية، ما يجعل النسق الثقافي التقليدي يتمازج مع القيم و المؤسسات العصرية بالشكل الذي يؤجل القطيعة و الانتقال، فإن الممارسة السياسية تجد مدلولها في الانتماءات العصرية بل في الواقع الاجتماعي ترتهن إلي قوة التقليد وبذلك تتواصل إمدادات القيم والممارسات التقليدية في عمق الفعل السياسي المنتمي شكلاً لا جوهر إلي المجال العصري، وعلى العموم يمكن القول إن أعيان القبائل والوجهاء في صنيعتهم التقليدية، لا يتمثلون السياسة، إلا كمجال لاختبار وجاهتهم وقدرتهم على حشد

التأييد، وهو نموذج مفرغ من أية حمولة إيديولوجية، فانخراط الأعيان في السياسة، لم يكن مبنياً على أسس إيديولوجية بمعني بناء دولة حديثة، وإنما وسيلة لخدمة مصالح الأعيان وتعزيز نفوذهم وتقربهم من فوائد الحكومة المركزية، إن مفهوم "المصلحة" يظل حاضراً بقوة في أغلب التعريفات التي أعطيت للسياسة من قبل الأعيان والوجهاء، فالسياسة تفهم في غالب الأحيان عند الأعيان عملاً انتخابياً يراد به الوصول إلي منصب ما أو على الأقل المساعدة في تحقيق أرباح مادية ومعنوية، ألم يقل غاستون بول(بول، 1982،89) بأن الوصول إلى الثروة يكون في أحيان كثيرة بفضل السياسة أو عن طريق ممارستها.

وندلل على ذلك، خلال فترة الانتخابات نلاحظ ظهور الانتماءات القبيلة، فالبعد القبلي هو المحدد الأساسي لكل استراتيجيات الفعل والتفاعل في الحقل السياسي بالمدن الليبية. إن السياسة عند القبائل الليبية، تختزل في الفترة الانتخابية وتظهر في تلك الفترة كل الممارسات التي تحث الناس على التصويت لفائدة مرشح القبيلة، وبعد انتهاء عملية الانتخاب ينتهي الفعل السياسي وممارسته، غير أن ذلك كله لا يشير إلى غياب أو فقر الممارسة السياسية في أشكالها اليومية المباشرة فالنظم السياسية المختلفة في المنطقة العربية، لا تزال تعتمد في توازناتها الهشة على كل ما أنتجه التاريخ وروضته البنيات القبلية من ممارسات سياسية، فالمفهوم الذي يعطيه الأعيان والوجهاء للسياسة هو مفهوم انتخابي بالدرجة الأولي، و يمكن القول أن وظيفة "التصعيد*" في النظام السابق تعد كوسيلة لخلق الإجماع على النظام السياسي فقط. وذلك عن طريق تعبئة أعضاء اللجان الثورية والقيادات المحلية، والتي تؤدي في النهاية إلى إبعاد المجتمع عن الممارسة الحرة للسياسة.

إن الانتماء للجان الثورية و القيادات المحلية يعد من أبرز محددات التمايز الاجتماعي في المجتمع الليبي خلال مرحلة النظام السابق، فالمكانة الاجتماعية تمنح وتبرر بناءاً على الانتماء للجان الثورية وليس بسبب الكفاءة، والشخص المؤهل أكثر من غيره للنجاح في العمل السياسي وفقاً للعبة السياسية في النظام السابق هو الشخص الذي "عنده الكلمة مع مكتب الاتصال باللجان الثورية" وما دام الآمر كذلك فكيف كانت تدار الحملات الانتخابية في القبائل والمدن الليبية خلال مرحلة النظام السابق؟

إن "التصعيد" أو الانتخابات خلال مرحلة النظام السابق، والحملات التي تسبقها وطقوسها هي مناسبة لي كباحث في الانثربولوجيا الثقافية، لرصد كيفية اشتغال نسق سياسي يدير الانتخابات، حيث الأهمية التي يتحصل عليها الأعيان والوجهاء في إدارة المشهد السياسي في قبائلهم، جعلت النظام السابق ينتبه مبكرا إلى أهمية أدوارهم، والاعتماد عليهم في بناء و تقوية سيطرته، فقد قوت السلطة المركزية من

* التصعيد كلمة تعني الانتخابات سادة في مرحلة النظام السابق

ركيزتها الاجتماعية في القبائل بإدماج شريحة من الوجهاء والأعيان في دواليب "مكتب الاتصال باللجان الثورية وفرق العمل الثوري "وبالتالي أصبحوا هؤلاء الأعيان لهم الكلمة مع قبائلهم ومع السلطات العليا.

إن الأجدر بتمثيل القبيلة سياسيا وفقا لأطروحات النظام السابق، هم الأعيان و الوجهاء "لقيادة القطاعات الخدمية، ففي اللحظات التي يعجز فيها النظام السابق عن مواجهة ظاهرة العزوف السياسي، فإن الاستنجاد بالأعيان والزعامات التقليدية كان سلوكاً منتهجا حتى من قبل "مؤتمر الشعب العام"* الذي كان يعتمد في اختيار المرشحين لإدارة قطاعات الخدمات عن طريق توجيه "القيادات الاجتماعية" لتسويقهم في الرأي العام والدعاية لهم، خلال حملات "التصعيد" الانتخابات من سنة 1990 حتى 2007 بدأ واضحا أن الحملات الانتخابية تشتغل وفق الآليات التالية:

أولا: الفرد الليبي لا يوجد إلا ضمن القبيلة ومن هذه القبيلة يكتسب هويته وامتداده، ويتحقق الاعتراف به، ولهذا تتأسس الحملة الانتخابية على العنصر القرابي بالدرجة الأولى فالسياسة هنا لا تتم في مسارات سياسية وإنما تتم في مسارات غير سياسية كالدين والقرابة ،"ولد عمكم" "ولد قبيلتكم" وفي اللحظة التي يغيب فيها أو يقل الانتماء القبلي فانه ينتقل إلى استعمالات مثل "خوت الدم" "خوت الجد"، فالحملات الانتخابية التي كانت تنطلق خلال مرحلة النظام السابق في القرى والمدن الليبية، تعتمد على الاستراتيجيات القرابية والقبيلية فهي التي تضمن النجاح أو على الأقل تيسير إمكان الوصول إليه، فتزكية القبيلة مهمة جدا في خوض الانتخابات ويعتبر أهم مفاتيح التفوق بين المنافسين السياسيين.

ثانياً:الإطعام و الضيافة: يعتبر الطعام من ضرورات استعراض و تجذير الوجاهة الاجتماعية، وعندما يستعمل في أوقات الانتخابات، فإنه لا يفي عن حدود الوجاهة بل يمتد إلى مستوي تضمين علاقات الولاء والتبعية، وتوثيق الالتزامات المطلوبة بشأن السلوك الانتخابي، فالمرشح يلتقي بالجماعة ويذبح كبشا أو ثوراً ثم يقدم وجبة جماعية، وبعد الانتهاء من الأكل تقرأ الفاتحة، حيث يصبح أعضاء الجماعة ملتزمين بالتصويت جماعياً لصالح المرشح الذي أطعمهم**.

فاستعمال الضيافة في الحملات الانتخابية له أهمية تدل على الالتزام بالوعد،و تؤدي في نفس الوقت إلى تغيير الولاءات، وحشد أكبر عدد ممكن من الزبناء والأتباع، ولهذا يصبح الإطعام و الضيافة

* مصطلح مؤتمر الشعب العام وفقا للنظام السابق السلطة التشريعية بمثابة البرلمان في الأنظمة الديمقراطية.

** يعتبر الليبيين حضور ضيافة الانتخابات تفرض التزامات ،بسبب ما يعنيه الطعام المشترك من ثقة تامة بين آكليه فيقال في المثل الشعبي"أكل ملحنا" فالملح له دلالة منها الملح لا يكتمل و لا يطيب الأكل إلا بوجوده ،فهو الشرط المؤسس لكل طعام،فضلا عن بياضه و عدم تلفه،و لها يتساءل الليبيين دوما إزاء كل مشكك في اتفاق ما"أكل ملحنا" "و الملح ما يدود" بمعني تفسد و تظمر فيه الديدان ،فالملح تميز بالنقاء و عدم التلوث و هو أعز ما يطلب في العلاقات الإنسانية .

في فترة الانتخابات المجال الأكثر حيوية إلى الدرجة التي يتحول فيها إلى مبارزة لإظهار التفوق، فكل مرشح مطالب بأن يكون الأكثر إنفاقاً وجوداً، حتى يحقق التميز على منافسيه وتظل "ضيافته" الأكثر انغراساً في الذاكرة الجماعية. وبالإضافة إلى عنصر "الضيافة والإطعام" يوجد عنصر موحد لكل هذه المنافسات إنه طقس " الفاتحة التي تقرأ في ختام الحفل الذي يسميه المرشح "صدقة" وليس "ضيافة " إنه الاستنجاد مرة أخري بالمقدس لإنتاج الالتزام، فعن طريق قراءة الفاتحة جماعية وتوكيدها بالدعاء لصالح المرشح بالنجاح، تكون الحملة الانتخابية قد أخذت مساراً أخر يستند علي توظيف الدين.

مما سبق نكتشف بالرغم من انتماء الانتخابات إلى سجل الديمقراطية الحديثة، فإن إدارة حملاتها تؤكد استمرارية قيم ثقافية مرتبطة بالقبلية والثقافة التقليدية، هذا يعني إن التاريخ السياسي الليبي جامداً ولا يتغير إلا من خلال القطيعة مع الماضي، ولكن لم يتحقق ذلك فالولاءات القبلية تبقي عاملاً أساسياً في تحديد الفعل السياسي، أي أن الناخبين يصوتون على المرشح الذي يمثل انتمائهم القبلي. فهناك ثلاثة مرتكزات تشكل أساسيات الحملات الانتخابية خلال مرحلة النظام السابق:-

1 – علاقة المنتخب بمكتب الاتصال باللجان الثورية.
2 – علاقة المنتخب بالقيادات الاجتماعية المحلية التي تعمل علي الدفع بالمنتخب.
3 – البعد القبلي الذي يجعل من التصويت لصالح ولد القبيلة إلزاما لا اختيارا.

يتضح مما سبق، أن التنافس خلال الحملات الانتخابية في مرحلة النظام السابق، يظل تنافس قبلي، فنجاح المترشح وإن كان نجاحاً شخصياً فإنه يعتبر نجاحاً للقبيلة ونجاحاً لحكماء وأعيان القبيلة فهم من يعرفون "الآليات" المتحكمة في صناعة الصوت الانتخابي، ولهذا وجد "مؤتمر الشعب العام" ومكتب الاتصال باللجان الثورية " مدعو للاستنجاد بخبرتهم لمقاومة ضعف المشاركة السياسية.

خاتمة البحث

إن الطرح النظري المتعلق بالقبيلة والزعامات التقليدية والنخب المحلية، والتي عرضناها فيما سبق، تضعنا الآن أمام سؤال مهم جداً وهو: أي الأطروحات أجدي لتفسير ظاهرة الأعيان والوجهاء في القبائل الليبية، وهل تفي نظريات النخبة بالغرض؟

من خلال بعض الاجتهادات التي درست النخبة يتبين لنا أننا حيال تصور مركزي لتفسير ظاهرة الأعيان والوجهاء في القبائل الليبية، فالشرط التاريخي المتصل بالانتماء لجد مشترك للقبيلة ومجال جغرافي للقبيلة يعد عاملاً أساسياً لظهور الأعيان والوجهاء، إضافة إلى أن الكيان القبلي في المجتمع الليبي لم يتمكن من المحافظة على نفسه إلا بسبب الخوف من الاستعمار وحالة الطوارئ الدائمة التي اقتضاها الجهاد ضد الاستعمار، فالتهديد الداخلي الناتج عن الصراع بين القبائل عن موارد المياه والمراعي، والحروب مع المستعمر، ساهما معا في جعل استمرار هذا الكيان القبلي ممكناً، وإذا كان

صحيحاً أن الصراعات بين القبائل والتدخل الخارجي شكل عامل محافظة بالنسبة لليبيين، وأدي لظهور أشكال شتى من التوافق و المصالحة وظهور زعامات كانت تظهر في أوقات النزاعات المتفجرة بين القبائل مما يعني استحالة استغناء القبائل عن قبول التحكيم السلمي للصلحاء.

فصلحاء القبائل خاصة منهم أولئك الذين حظوا بمكانة خاصة كالشرفاء والمرابطين، كانت لديهم سلطة خفية لكن قوية ولها فاعلية، لقد كان هؤلاء الصلحاء مدرجين بشكل أو بأخر ضمن إستراتجية الحكومة التركية، التي كانت تقتضي آنذاك معاكسة نزاعات العصيان وتهدئة غليان القبائل – الإدارة الاستعمارية الايطالية بوسائل عسكرية لم يسبق لها مثيل، و ضعت حداً لجدلية القبيلة وفرضت وصايتها علي المؤسسات القبلية، مما افقد المواجهات القبلية طابعها الحربي وحصرها في علاقات القرابة و التعامل مع الشيوخ والأعيان للسيطرة على القبائل، حيث كان للشيوخ والأعيان حضور قوى في القبائل الليبية، لقد أدرك الاستعمار الايطالي أن شيوخ القبائل لهم نسق ثقافي خاص، يتكون من المكونات الثقافية التقليدية للقبيلة.

إن مسألة إنتاج شيوخ وأعيان ووجهاء كانت ولازالت من المسائل المهمة في فهم النسق القبلي الليبي و اكتشاف علاقاته وتفاعلاته، وبالطبع فإن تتبع مراحل إنتاج الأعيان و الوجهاء، لا يكون ممكناً بدون استدعاء جملة من الوقائع التاريخية والسياسية التي حددت بداية الأدوار التي يفترض أن يقوم بها الأعيان والوجهاء، وهذا ما استوجب منا متابعة أداء الأعيان في كثير من الحقول لنصل في الأخير إلي نقاط التالية:

أولاً: الأعيان و الوجهاء كبناء: ليس الثروة وحدها ما يصنع الأعيان والوجهاء فهناك عوامل أخري، تساعد علي إنتاج الوجاهة الاجتماعية، فلابد من توافر عناصر متعددة تتوزع علي خبرات رمزية من قبل الإرث العائلي والعلاقة مع الحكومة المركزية والانتماءات الشريفيه مثل "الانتماء إلى أل البيت" فضلاً عن الأساس الاقتصادي المتمثل في امتلاك الأرض و الأغنام.

ثانياً: الأعيان والوجهاء كاعتراف: إن الأعيان والوجهاء هم بالضرورة نتاج اعتراف خارجي بمعني أنه لا يكفي أن يمتلك الشخص الثروة والأرض ليكون من الأعيان لأن الأهم في إنتاج الأعيان والوجهاء هو الاعتراف المحلي والمركزي بها، فالأتباع وهم أفراد القبيلة هم الشرط المؤسس للأعيان.

ثالثاً: الأعيان كاستثمار: أن الأعيان والوجهاء تستلزم سلوكاً خاصاً بها، فالأعيان يلزمهم باستمرار أن يحافظوا على وجاهتهم الاجتماعية التي من خلالها يتم الاعتراف بهم، من قبل الأتباع وغيرهم من ممثلي

النخب المحلية والوطنية، فالأعيان يتطلب منهم دائماً نوعاً من الإشهار الاجتماعي، فلابد استثمار الخبرات الرمزية لأجل إبراز الوجاهة الاجتماعية.

رابعاً: الأعيان والوجهاء كاحتكار: يتطلب تحصين الوجاهة الاجتماعية وضمان استمراريتها الدخول في احتكار عدد من المجالات المؤثرة في صياغة الفعل الاجتماعي مثل استخدام الدين والسياسة والاقتصاد، إن العمل في هذه المجالات والاستثمار فيها واحتكارها يستلزم من الأعيان والوجهاء أداء مختلفاً يساعد في إنتاج وإعادة إنتاج الهيمنة والإخضاع. فتوسيع وتقوية مصادر النفوذ وإبراز الوجاهة الاجتماعية، وحشد الأتباع ومقاومة المنافسات، كلها عناصر تتطلب من الأعيان والوجهاء الاعتماد على آليات تتأرجح بين التقليد و الحداثة.

مما سبق يتضح أن التحولات التي عرفتها النخب في ليبيا بدءاً من شيوخ القبائل والأعيان والحكماء وأهل الحل والعقد ومجالس الشورى حالياً، كل هذه التحولات لم تُلغ الأدوار التاريخية للأعيان والوجهاء كفاعلين أساسين في القبائل، بل عملت على تجذير وجاهتهم و تقوية الحاجة إليهم، إلى الدرجة التي بات فيها من المتعذر جداً الاستغناء عن خدماتهم في تدبير الشأن العام في القبائل الليبية والمدن الليبية.

إن دخول منافسين جدد إلى سجل النخب المحلية في ليبيا سواء عن طريق الكفاءة والقدرات العلمية أو عن طريق النجاحات المهنية أو عن طريق المال الآن وتسويقها في خانة الأعيان والوجهاء يظل متعذراً بسبب افتقارها إلى الشروط الضرورية لإنتاج الأعيان.

فالأعيان والوجهاء لم يحافظوا عن وجودهم بالاعتماد على المال أو المؤهلات العلمية بل من خلال الاستثمار الرمزي للثقافة وتمتين العلاقات مع أفراد قبائلهم و تطوير قدرتهم علي فك رموز الجماعات والمكونات الثقافية وتأكيد الانتماء لهذه الجماعات والانتماء إليها، فالأعيان وإن كانوا نتاجاً لتاريخ من التوترات والصراعات التي مر بها المجتمع الليبي في مراحل مختلفة، فهي ضرورة سياسية لم يستطع صانع القرار في ليبيا اليوم الاستغناء عنهم، فدوماً هناك "طلب اجتماعي" على الأعيان والوجهاء بالرغم من تعدد وتغير قواعد اللعبة.

في الختام نري تزايد نفوذ الأعيان و الوجهاء في المشهد السياسي حاليا ناتج للعوامل التالية:

- حداثة قيام الدولة العصرية في ليبيا.
- ضعف مؤسسات الدولة مثل النقابات، نظام التعليم، أحزاب، جمعيات المجتمع المدني.
- ضعف التصنيع بل غياب بنية صناعية فاعلة قادرة على خلق روابط جديدة مخالفة لروابط القبيلة.

- تزايد الثقافة القبلية في العاصمة طرابلس باعتبارها مركز الثقافة وبالتالي أدت إلى التماسك بالقبيلة حيث لم يظهر في العاصمة المعاملات المبنية على سلوك الحداثة والدافعية للإنجاز.
- ساهمت الدولة في تجذير التقسيمات الإدارية القبيلة مما زاد في نفوذ الأعيان و الوجهاء.
- لم تسع الدولة إلي استحداث وحدات جديدة تلغي الحدود و المعالم القبلية الموجودة بقدر ما أضافت إليها و تبنتها كمجالات لتعايش سلطة الدولة إلي جانب سلطة القبيلة، هذا الاستيعاب سمح بظهور سيطرة الدولة علي الوظائف الأمنية في النظام السابق، إلا إن الحياة اليومية للقبائل وأحوالهم الشخصية ظلت من اختصاص أعرافهم وقياداتهم المتمثلة في الأعيان والوجهاء، ولهذا نجد وجود ازدواجية بين زعماء القبائل والدولة في ليبيا ، فالدولة تتعامل بأشكال متباينة مع الأعيان والوجهاء فتارةً تضعف مكانة الدولة السياسية وفي هذه الحالة تخف هيبة الدولة كقوة رادعة وتظهر قوة الأعيان والوجهاء، وتارةً أخري تصبح الدولة قوة رادعة و بمقدار ضعف الدولة وقوتها يتزايد خضوع الأعيان والوجهاء و تمردهم علي الدولة

و عليه نوصي المؤتمر الوطني بتشكيل المجلس الأعلى للشيوخ تكون تبعيته للمؤتمر الوطني وفقاً للشكل الآتي :-

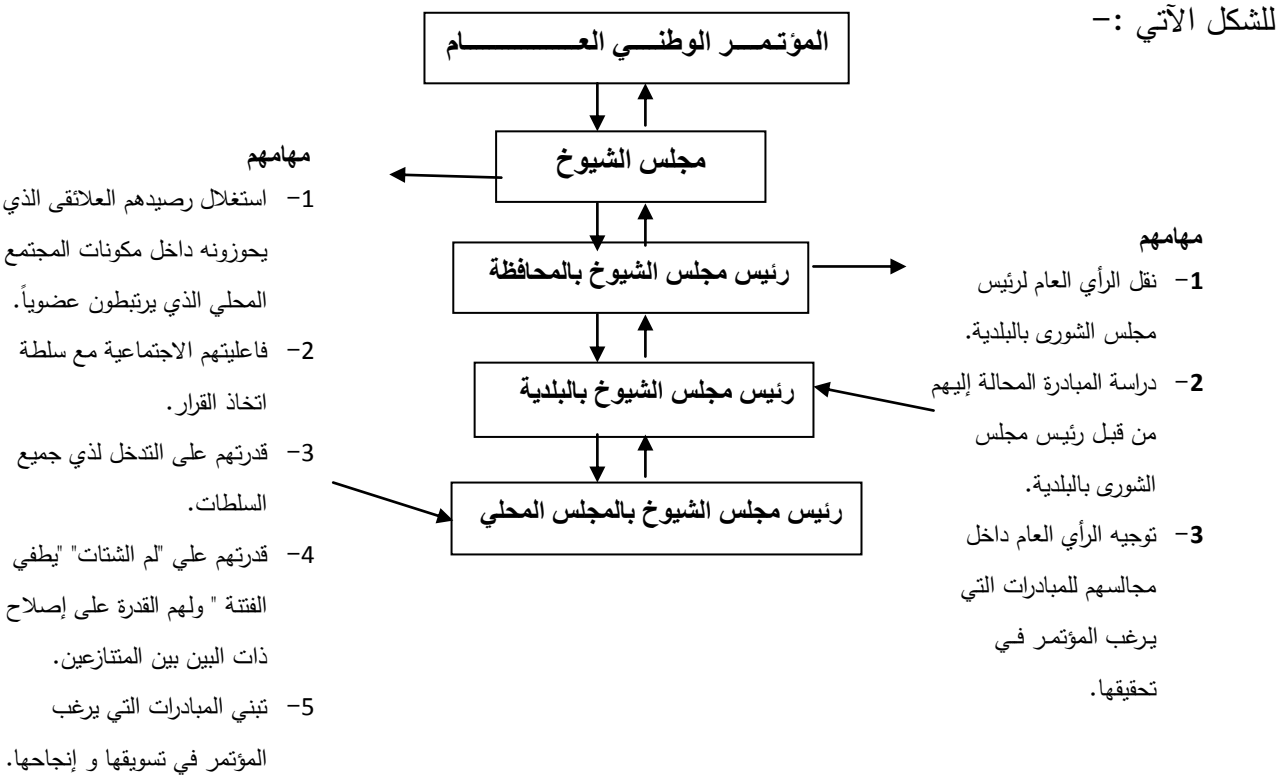

المراجع:

1- ابن منظور "لسان العرب "الجزء الرابع- بيروت، الطبعة الأولى 1997 .

2- إرنست كلينر"السلطة السياسية والوظيفة الدينية في المغرب العربي" الرباط 1981.

3- ابو الحسن علي "الأحكام السلطانية والولايات الدينية "بيروت، الطبعة الأولى 2006.

4- بلال صفاء الدين "أهل الحل و العقد في الحكم الإسلامي" دار النور، دمشق، الطبعة الأولى، 2008.

5- بول باسكون "نمو الرأسمالية في عهد الحماية " تعريب زبيدة بورحيل، المجلة العربية للاقتصاد والاجتماع العدد الرابع 1978.

6- بيير بورديو "العنف الرمزي" بحث في أصول علم الاجتماع التربوي، ترجمة نظير جاهل، المركز الثقافي العربي- بيروت 1994.

7- غاستون بول "السوسيولوجيا السياسية" ترجمة نسيم نصر، منشورات عويدات – بيروت 1982.

8- ليليا بن سالم "التحليل القبلي لمجتمعات المغرب الكبير مطبعة طوب بريس"، الرباط، المغرب 1998.